وقفات مع سورة التوبة وفـــق التفسير الموضوعـــي

أ. عبدالهادي محمد أحمـــد أبوبكـر العـــرابي
قسم الدراسات الإسلامية ، كليـــة الآداب ، جامعــة طرابلس
alarabialhadi23@gmail.com
تاريخ الارسال 2025/10/13م تاريخ لقبول2026/1/9م

Reflections on Surah At-Tawbah According to Thematic Interpretation

Abdulhadi Muhammad Ahmad Abu Bakr Al-Arabi
Department of Islamic Studies, Faculty of Arts, University of Tripoli
alarabialhadi23@gmail.com

Abstact
This study examines the thematic interpretation of Surat At-Tawbah by identifying its main themes and overall objectives. The surah addresses the declaration of disassociation from polytheists, outlines the rulings and purposes of jihad, exposes the characteristics of hypocrites , and highlights the qualities of true believers . The study concludes that surat Al-Tawbah presents a Qur`anic framework for ideological distinction, moral accountability , and the establishement of a sincere and responsible Muslim community.

الملخص:

يتنـاول هـذا البحـث التفسـير الموضـوعي لسـورة التوبـة، وذلـك مـن خـلال بيـان محاورها ومقاصدها الكلية وما تحتويه من إعلان البراءة من المشركين، وبيان أحكـام الجهاد، وكشف صفات المنافقين، وإبراز سمات المؤمنين الصادقين، كما يبرز البحـث التمحيص الإيماني، وترسـيخ مبـدأ الـولاء لله ورسـوله، وبنـاء المجتمـع علـى الصـدق وتحمل المسؤولية.

الكلمات المفتاحية : الولاء والبراء ، المجتمع القرآني ، أحكام الجهاد .

المقدمة:

الحمـد لله رب العـالمين والعاقبـة للمتقـين، ولا عـدوان إلا علـى الظـالمين، وأصـلي وأسلم على النبـي المصـطفى الأمـين وعلـى آلـه وصـحبه الطيبـين الطـاهرين، صـلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

وبعد:

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

فإن أسباب التأليف كما قال الإمام المقّري إما شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفرق فيجمع، أو منثور فيرتب، وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمن أن التآليف سبعة لكل لبيب في النصيحة خالص
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ وإبداع حبر مقدم غير ناكص
وترتيب منثور وجمع مفرق وتقصير تطويل وتتميم ناقص (المقّري، 1358).

وبعد

فإن أشـــرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدراً بالاتفاق، هو علم التفسير لكلام القوي القدير، وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام والأذهان(الشوكاني،1414هـــ)

وإنَّ مقصدي في هذه البحث هو جمع وترتيب منثور أقوال المُفسّرين حول سورة(التوبة) وتفسيرها تفسيراً موضوعياً بعيداً عن الاختصار المخلّ، والتطويل الذي عنيت به الرسائل الدقيقة، حيث تعد سورة التوبة من السور المدنية التي تتناول قضايا أساسية في بناء المجتمع، فقد تناولت البراءة من المشركين والجهاد وفضح النفاق والمنافقين، وتنظيم علاقة المسلمين مع غيرهم من أهل الكتاب، وبيان صفات المؤمنين الصادقين.

إشكالية البحث وتساؤلاته :

كيف يمكن الوصول لتفسير موضوعي جامع لسورة التوبة وهي تزخر بموضوعات متعددة، وكذلك تداخل موضوعاتها وقضاياها العقدية والسياسية والتشريعية دون الإخلال بمقاصدها ووحدتها الموضوعية؟

أهداف البحث:

-إثراء المكتبة الإسلامية، وخاصة وأن هذا المجال وهو التفسير الموضوعي يعتبر تفسير حديثاً.

-إعانة البحاث في هذا المجال بشيء من التدقيق حول مسألة النفاق والمنافقون والجهاد والمجاهدون، وبيان معنى الولاء والبراء من المشركين.

- بيان تحذير الله تعالى للمؤمنين من موالاة المنافقين والمشركين وخطورة التثاقل عن الجهاد.

أهمّية البحث:

1- وضع قواعد واضحة للعلاقات بين المسلمين والمشركين وأهل الكتاب.
2- بيان أسس الولاء والبراء.
3- كشف خطر المنافقين من خلال بيان صفاتهم.
4- بيان أحكام ومقاصد الجهاد.
5- استخراج دروس تربوية مثل الصبر على الدعوة والتعامل مع الآخرين.

منهجية البحث:

-اعتمدت في البحث على المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي الذي يركز على استنباط موضوعات السورة وتحديد محورها العام ثم تقسيمها إلى أجزاء أو محاور فرعية.
-عزو الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم وفق رواية قالون عن نافع، مع وضع الآية بين قوسين مزهّرين، ثم يذكر اسم السورة، ورقم الآية.
-توثيق الأقوال وعزوها بذكر اسم الكتاب، ثم المؤلف، ثم دار النشر، وتاريخ الطبعة ثم المجلد والصفحة.

خطة البحث:

جاءت خطة البحث في مقدمة ، وتمهيد ومبحثان ، وفي كل مبحث عدة مطالب وخاتمة فيها أهم النتائج ، ففي المبحث الأول: التعريف بالسورة وما يتعلق بذلك من اسمها ومكان وزمان نزولها وما يتعلق بالبسملة وعلاقة السورة بما قبلها وما بعدها، و المبحث الثاني: في بيان الوحدة الموضوعية ومحاور السورة وتحليل موضوعاتها وفيه ثلاثة مطالب ، وخاتمة فيها أهم النتائج.

تمهيد:

التفسير الموضوعي هو منهج علمي في دراسة القرآن الكريم، يركز على استخراج المواضيع الأساسية، والسياقات العامة لكل سورة أو جزء من القرآن بدلا من تفسير الآية بمعزل عن السياق الشامل، فالقرآن الكريم مليء بالموضوعات التي تحتاج إلى دراستها دراسة منهجية موضوعية، لو توافر عليها الدارسون، وأعطوها اهتمامهم، لظهرت كنوز القرآن الكريم على أيديهم في هذه الدراسات ظهوراً يبين معه: أننا: أغنى أمه بالتشريعات الصالحة لكل زمان ومكان، وأننا في غنى عن استيراد هذه النظم التي يلاحقها التغيير المستمر، والقوانين الوضعية الدخيلة، التي جعلتنا نعيش في غربة عن ديننا، فهو النوع من التفسير يقدم رؤية متكاملة ونظرة شمولية للمواضيع

القرآنية، من أجل ذلك شمَّرت عن ساعد الجد، وأردت أن أدلي بدلوي ولو بقطرة في بحر هذا العلم، والله الموفق(الفرماوي،1397).

المبحث الأول ـ في التعريف بالسورة وما يتعلق بذلك من اسمها ومكان وزمان نزولها وما يتعلق بالبسملة وعلاقة السورة بما قبلها وما بعدها

المطلب الأول ـ اسم السورة وتسميتها:

سميت سورة التوبة بهذا الاسم لأن فيها التوبة على المؤمنين، وبيان شروط العودة إلى الله بعد المعصية(الشوكاني،1414هـ)، وفيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهو حدث عظيم (بن عاشور،1984م)، وتسمى الفاضحة والبحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، وتسمى المبعثرة والبعثرة (القرطبي،1384هـ). فعن سعيد بن جبير قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة: الفاضحة (البخاري،1422ه)، (أبو الحجاج،1422هـ).

المطلب الثانـــــي ـ زمان ومكان النزول:

هذه السورة الكريمة مدنية عدد آياتها مائة وتسعة وعشرون ءاية وهي من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال البخاري حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول آخر آية نزلت " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " وآخر سورة نزلت براءة (ابن كثير،1420هـ).

المطلب الثالث ـ غياب البسملة وخصوصية السورة:

واتفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة في أولها، فقال عثمان - رضى الله عنه - : أشبهت معانيها معانى الأنفال، أي : لأن في الأنفال ذكر العهود وفى براءة نبذها، وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، فلذلك لم تبـدأ بالأمان، وكانتا تدعى القرينتين في زمن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - ، فلذلك قرنت بينهما ووضعتهما في السبع الطوال (ابن عجيبه، 1224هـ)، وقيل إن الصحابة اختلفوا في أن سورة الأنفال، وسورة التوبة هل هما سورة واحدة أم سورتان ؟ قال بعضهم : هما سورة واحدة؛ لأن كليهما تتعلقان بالقتال، ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال، وهي سبع، وما بعدها المئون فهما بمنزلة سورة واحدة، ومنهم من قال سورتان، فلما ظهر الاختلاف من الصحابة في هذا الباب، تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول هما سورتان ، وما كتبوا " بسم الله الرحمن الرحيم(أبو حفص،1419هـ).

المطلب الرابع ـ علاقتها بما قبلها(الأنفال) وبما بعدها (يونس عليه السلام):

تبدو العلاقة بينهما في أن الانفال تضمنت الأمر بالقتال(**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)** سورة الأنفال، الآية: (39)، وبينت أحكام الفرار من الزحف وما هي النسبة المرادة فيما يتعلــق بالعدد الذي إن فرّ يلحقه الإثم، وحُكم الأسارى وحكم ولاية المؤمنين ومن يدخل تحت ولايتهم ولا يدخل، ثم ذكر سورة التوبة لبيان من عهد إليه من المشركين، والبراءة منهم إذا لم يوفوا، وحكم من استجار منهم إلى غيره مما يتعلق من أحكام خاصة بهذا الباب، فالتحمت السورتان أيما التحام. (الغرناطي،1410هـ)، وأما علاقتها بما بعدها يقول البقاعي (د.ت): فلما لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومما استتبع ذلك من توصيل القول قي ترجمة هذا النبي الكريم مع قومه في أول أمره وأثنائه وآخر في سورتي الأنفال وبراءة, وختم ذلك بأن سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له متهيئ لقبوله وتبعده عما منافر له بعيد من قبول ملاءمته، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك قد حوى من الصفات والحلي والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه، والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً فهو كافيه الله وهو حسبه، لما كان ذلك كذلك أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم سورة التوبة, وزاده وصف الحكمة وأشار بأداة البعد إلى رتبته فيها بعيدة المنال بديعة المثال فقال : ﴿ **تلك**﴾ أي: الآيات العظيمة جداً التي اشتملت عليها هذه السورة, أو السور التي تقدمت هذه السورة أو هذا القرآن الذي وافق كل ما فيه من الأخبار كل ما في التوراة والإنجيل من ذلك , فدل ذلك على صدق الآتي به قطعاً فهو لم يجالس أحداً من أهل الكتابين.

المبحث الثاني ـ في بيان الوحدة الموضوعية ومحاور السورة وتحليل موضوعاتها:

المطلب الأول ـ ماهية الوحدة الموضوعية للسورة وأهميتها.

أولاً ـ ماهية الوحدة الموضوعية للسورة:

تتميز سورة التوبة بوحدة موضوعية واضحة، رغم تنوع مواضيعها حيث تدور جميع آياتها حول محور رئيسي واحد يتمثل في تمييز الصفوف بين المؤمنين الصادقين والمنافقين والمشركين وتحديد العلاقة بينهم وبين الدولة الإسلامية.

ثانياً ـ أهمية الوحدة الموضوعية:

تكمن أهمية الوحدة الموضوعية في أنها:

ـ تساعد القارئ على فهم الرسائل الأساسية دون تشتت.

ـ تبرز العلاقة بين مختلف القيم القرآنية مثل الولاء والبراءة والإخلاص والجهاد.
ـ توفر قاعدة لفهم السلوكيات الصحيحة للمؤمنين والممارسات الواجب تجنبها.
ـ تسهل استخراج الدروس التطبيقية للأمة الإسلامية في كل زمان ومكان.

المطلب الثاني ـ محاور السورة ووحدة آياتها وسياقها:

هناك محور رئيس تدور حوله سورة التوبة وهو: إعلان البراءة وترسيخ مبدأ الولاء والبراء في مرحلة التمكين ، وإذا أتينا إلى تفصيل وتحرير هذا المحور الرئيس تظهر هذه المحاور:

1ـ النفاق وأهله، وبيان صفاتهم(1-40).
2ـ الجهاد وفضله وما يتعلق به من أحكام(41-81).
3ـ الولاء والبراء(82-114).
4ـ الدعوة للتوبة والإنابة إلى الله(115-129).

المحور العام للســـورة: في تنظيم العلاقات الداخلية والخارجية للمجتمع الإسلامي على أساس الإيمان والعمل الصالح والولاء لله ولرسوله، فقد تطرقت السورة إلى البراءة من المشركين الذين نقضوا العهد وحذرت من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويخفون النفاق وأكدت على أهمية الجهاد والإنفاق في سبيل الله

وحدة الآيات وسياقها: على الرغم من أن السورة تحتوي على مواضيع متعددة، البراءة الجهاد والنفاق والإنفاق والولاء والبراءة إلا أن جميع هذه الآيات متصلة بموضوعها الرئيس فقد ربط القرآن بين الأحداث التاريخية الواقعية مثل الغزوات والمعاهدات والدروس العملية مما يعكس وحدة الموضوع ويوضح سياق كل آية بالنسبة للموضوع العام.

المطلب الثالث ـ تحليل موضوعات السورة.

الموضوعات الرئيسة في سورة التوبة

أولاً ـ البراءة من المشركين الذين نقضوا العهود:

مؤكدة على أنه يجب الوفاء بالعهد لمن لم ينقضه، ومعاقبة المخالفين جاء في قوله تعالى (**بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ)** سورة التوبة، الآية: (1) هذا المقطع من سياق السورة نزل متأخرًا عن بقيتها، وإن كان قد جاء ترتيبه في مقدماتها. وترتيب الآيات في السورة توقيفي، وهو يتضمن إنهاء العهود التي كانت قائمة بين المسلمين والمشركين وقتئذ، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة، أو الناكثين لعهودهم أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم

عهود مقيدة، ولم ينقصوا المسلمين شيئا ، فالحاصل إنهاء العهود مع المشركين في الجزيرة العربية وإنهاء مبدأ التعاقد أصلا مع المشركين بعد ذلك، بالبراءة المطلقة من المشركين، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله (الشاذلي، 2019).

ثانياً ـ الجهاد ونصرة الدين:

ركّزت السورة على الجهاد في سبيل الله كوسيلة لحماية الدين والدولة الإسلامية، حيث حثت المؤمنين على بذل النفس والمال في سبيل الله واعتبرت الجهاد اختبارا للإيمان **(قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)** سورة التوبة، الآية: (29).، وقوله : (قَاتِلُواْ الذين) أمر منه - سبحانه - للمؤمنين بقتال أهل الكتاب، وبيان للأسباب التى دعت إلى هذا ، وهى أنهم :

1-**(لاَ يُؤْمِنُونَ بالله)** لأنهم لو كانوا مؤمنين لاتبعوا رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم ولأن منهم من قال : **(عُزَيْرٌ ابن الله)** ومنهم من قال : **(المسيح ابن الله)** وقولهم هذا كفر صراح، وضلال بواح، لأنه - سبحانه – منزه عما يقولون . قال - تعالى - **(قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ)** سورة الإخلاص، الآية: من1 إلى4

2- أنهم " لا يؤمنون باليوم الآخر " على الوجه الذى أراده سبحانه، ومن كان كذلك لا إيمان له، وهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أي : أنهم يرون نعيم الجنة وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك، ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين.

3- **(أنهم وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ)** أي : لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم – في القرآن والسنة، وفضلاً عن ذلك فهم لا يلتزمون ما حرمته شريعتهم على ألسنة رسلهم فهم منسلخون حتى من شرعتهم، فقد غيروا وبدلوا فيها على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم، أي : أنهم لا يحرمون ما حرمه الله لا في شريعتنا ولا في شريعتهم ، فاليهود - بجانب كفرهم بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم ، بدليل أنهم استحلوا أكل أموال الناس بالباطل. قال - تعالى - **(وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل)** سورة النساء، الآية: (160)، والنصارى - بجانب كفرهم - أيضاً - بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم بدليل أنهم ابتدعوا الرهبانية مع أن شريعتهم لم تشرع لهم ذلك ، قال - تعالى -: **(وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)** سورة الحديد، الآية: (26)،

4-﴿ **وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق**) وقولــه : ﴿ **يَدِينُونَ**) بمعنى : يعتقدون ويطيعون، والمراد بدين الحق : دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان . أي : أنهم لا يتخذون دين الإسلام ديناً لهم، مع أنه الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، والذى لا يقبل - سبحانه - ديناً سواه، قال - تعالى - : **(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين)** سورة آل عمران، الآية: (84)، ويصح أن يكون المراد بدين الحق . ما يشمل دين الإسلام وغيره من الأديان السماوية التي جاء بها الأنبياء السابقون ، أي : ولا يدينون بدين من الأديان التي أنزلها الله على أنبيائه، وشرعها لعباده، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم . وقوله :﴿ **مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب)** بيان للمتصفين بهذه الصفات الأربعة وهم اليهود والنصارى؛ لأن الحديث عنهم، وعن الأسباب التي توجب جهادهم . والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل . أي : قاتلوا من هذه صفاتهم، وهم اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل – فخالفوا كتبهم وعملوا بما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم ونزواتهم . والمقصود بقوله : ﴿**مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب)** تميزهم عن المشركين عبدة الأوثان في الحكم، لأن حكم هؤلاء قتالهم حتى يسلموا، أما حكم أهل الكتاب فهو القتال، أو الإسلام ، أو الجزية ، وقوله : ﴿ **حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)** غاية لإنهاء القتال . أي : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن طوع وانقياد، فإن فعلوا ذلك فاتركوا قتالهم، وكفوا عنهم فإنه قد تحقق المطلوب،

والمراد بإعطائها في قوله : ﴿**حتى يُعْطُواْ الجزية)**، التزام دفعها وإن لم يذكر الوقت المحدد لذلك. واليد هنا : يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانقياد. أي : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وإذعان وانقياد، ويحتمل أن تكون كناية و " عن " الدفع نقداً بدون تأجيل، أي : حتى يعطوها نقداً بدون تسويف أو تأخير . ويحتمل أن تكون على معناها الحقيقي ، و " عن " بمعنى الباء أي : حتى يعطوها بيدهم إلى المسلمين لا أن يبعثوا بها بيد أحد سواهم. وهذه المعاني لليد إنما تتأتى إذا أريد بها يد المعطى. أي : يد الكتابي . أما إذا أردنا بها اليد الآخذة - وهى يد الحاكم المسلم - ففي هذه الحالة يكون معناها القوة والقهر والغلبة . أي : حتى يعطوها عن يد غالبة قوية لا قبل لهم بالوقوف أمامها، ولا تصدي لها فلا يدان لهم . وقوله : ﴿**وَهُمْ صَاغِرُونَ)** من الصغار بمعنى الذل والهوان، والمعنى : قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لكم الجزية: عن طواعية وانقياد . وهم أذلاء، فإن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرمه الله ورسوله، ولا يتخذون الدين الحق ديناً لهم، يستحقون هذا

الهوان في الدنيا، أما في الآخرة فعذابهم أشد وأبقى . (طنطاوي،د.ت).

ثالثاً ـ التحذير من النفاق والمنافقين

أبرزت السـورة خطر النفاق داخل المجتمع، وبينت صفات المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر مع توبيخهم، وتقريعهم على تخلفهم عن الجهاد(**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**)سورة التوبة، الآية: (82).

أولاً: النفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، مأخوذ من نافقاء اليربوع؛ لأنه يدخل من باب، ويخرج من باب، فقيل للمنافق: (منافق)؛ لأنه يخرج من الإسلام من غير الوجه الذي دخل فيه؛ وذلك أنه دخل علانية وخرج سرّاً، وأصل(نفق): يدل على إخفاء الشيء وإغماضه (ابن فارس،1399هـ).

ثانياً ـ اصطلاحاً: هو القول أو الفعل بخلاف ما في القلب من الاعتقاد، والمنافق هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وهو اسم لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وإن كان أصله في اللغة معروفا (الجرجاني،1403هـ).

قال مالك بن دينار- رحمه الله- : أقسم لكم، لو نبت للمنافقين أذناب، ما وجد المؤمنون أرضا يمشون عليها (**الأصبهاني،د.ت**). **وهــؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض، ثقلة الحرص على الراحة، والشـــح بالنفقة، وقعد بهم ضعف الهمة ، فقدموا الفانية على الباقيـــة، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً، هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقي ظلّ الإهمال كما لو كانوا متاعا يخلف أو هملا يترك - فرحوا بالسلامة والراحـــة ﴿ خلاف رسول الله ﴾ ، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَـــرِّ﴾** وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلـح لشيء مما يصلح له الرجال، فبعدا لهم.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطـــراوة الإرادة وكثيرون هم الذين يشـفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادّة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات، ولكن هذه الصفوف تظلّ في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال الذين عرفوا أن القعود لا يطيل في الآجال، والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة : ﴿ **وَقالُوا : لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ :**

نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ) ، فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال. فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرا ، وأطول أمدا؟ ﴿ **فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ)** ، وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما يعدون(الشاذلي،2019م).

رابعاً ـ الـــــولاء والبراء

أكّدت السورة على وجوب الولاء للمؤمنين والبراءة من أعداء الدين كقاعدة أساسية لاستقرار المجتمع الإسلامي وتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** سورة التوبة، الآية: (23). فأراد الحق سبحانه وتعالى تجميع قوى المؤمنين في بلد واحد في صدر الإسلام حتى يكونوا قوة متماسكين مرهوبين أمام الأعداء، فحضّ على الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، ورفض بلاد الكفر والشرك والإقامة مع المشركين، وجعل الجهاد مفضلا على ثمانية أشياء لإعزاز الدين وأهله، والتخطيط لبناء الأمة والمجتمع في المستقبل. قال الله تعالى موضحا هذه الخطة: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ)** نزلت الآية الأولى الناهية عن موالاة القرابة غير المؤمنة في شأن المؤمنين، قال الكلبي: لما أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وأهل بيته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيرقّ، فيجلس معهم، ويدع الهجرة، فنزلت يعاتبهم سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ الآية. وفي شأن الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا منها نزلت آية: **قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ** .. إلى قوله **فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** يعني القتال وفتح مكة.

والمقصود من الآيتين الحض على الهجرة. اقتضت حكمة إقامة الدين ومصلحة المسلمين حين نزول القرآن أن تكون هناك قطيعة تامة بين المؤمنين وأقاربهم الكافرين، حتى يبقى الدين سليما، فلا يتجزأ الانتماء وتتوزع العواطف، ولأن رابطة الدين أسمى وأولى وأقوى من رابطة القرابة أو العصبية أو القبلية أو الأسرية. والمراد

بالإخوان في الآيتين إخوان النسب (الزحيلي،1422هـ). ثم حذّر الله من يتول أولئك القوم ووصفه بأنه ظالم والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فتوليهم أبشع الظلم وأفظعه، فإن كان كذلك فتربصوا حتى الله بأمره حين ينزل بكم العذاب ويغشاكم العقاب (الجزائري،2003م).

خامساً ـ الإنفاق في سبيل الله:

ذكـــرت السورة الإنفاق في سبيل الله كأحد مظاهر الإيمان الصادق وبينت الفرق بين صدقة المؤمن وصدقة المنافق (**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** سورة التوبة، الآية:(80)، استئناف ابتدائـــي، نزلت بسبب حادث حدث في مدّة نزول السورة، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوســـق كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وأحب أبو عقيل أن يذكر بنفسه ليعطي من الصدقات فأنزل الله فيهم هذه الآية. الذين يلمزون مبتدأ وخبره جملة سخر الله منهم.

واللمز: الطعن، والمطوعين أصله المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما، وفي للظرفية المجازية بجعل سبب اللمز كالظرف للمسبب. وعطف الذين لا يجدون إلا جهدهم على المطوعين وهم منهم، اهتماما بشأنهم والجهد- بضم الجيم- الطاقة. وأطلقت الطاقة على مسببها الناشئ عنها. والمراد لا يجدون سبيلا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم، أي جهد أبدانهم.

والسخرية: الاستهزاء. يقال: سخر منه، أي : حصلت السخرية له من كذا، فمن اتصالية. (ابن عاشور،1984م).

الدروس المستفادة من سورة التوبة:

ـ التحذير من الغدر والخيانة، والتأكيد على الوفاء بالعهد والمواثيق فهو بين ظاهـــر لا يشتبه.

ـ وجوب الجهاد وعدم التثاقل وأنه من أعظم القربات عند الله ـ سبحانه ـ (**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**).

ـ بيان خطـورة النفاق والمنافقين، والنفاق الذي جاء في السورة هو النفاق الأكبر المخرج من الملة، فتبين لنا هذه السورة عدوّاً ماكراً، يدس نفسه بين أظهر المسلمين متظاهراً بالإسلام، وهو مضمر للكفر، قد تغلغل الحقد بين جنبيه، لكن الخوف يجبره على التستر، ويحول بينه وبين إظهار ما عنده من المكر والخداع.

ـ هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر (ابن القيم،1416).

ـ إن المنافقين ما كانـوا في مجتمع إلا نفثوا فيه سمَّهم الزّعاف، ويستغلون أوقات الفتن والمحن لكي يكشروا عن أنيابهم، فهم في السَّراء عالة، وفي الضراء سوس ينخر جسد المسلمين، وربما ساعدهم على المكر والخداع ما عندهم من ذلاقة اللسان، وبراعة التصنع، يتوارون في كل موقف يحتاجهم المؤمنون فيه قال – تعالى- : (**أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**)سورة الأحزاب، الآية: (19).

ـ بيان عقيدة الــولاء والبراء وأنه لا ولاء إلا لله ولرسوله وللمؤمنين قال ابن جرير قال: لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافرًا وليًّا في دينه، وقوله :﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة**)، إلا أن يكون بينك وبينه قرابة، فتصله لذلك(الطبري،1422هـــ).

ـ الحثّ الإنفاق في سبيل الله وأن ذلك من آيات التقوى ومن صدق الإيمان.

ـ إن التّوبة الصادقة عاقبتها الخير والفلاح وصاحبها من أهل الصلاح وهذا ظاهر في قصة الثلاثة الذين خلفوا.

الخاتمة:

من خلال البحث بدت مواضيع مهمة، ونتائج جمة، هي كالتالي:

1ـ ثبوت وحدة موضوعية جامعة لسورة التوبة وهي بناء المجتمع الإسلامي سلوكيا وعقديا.

2ـ تمييز السورة بين الإيمان الحقيقي والشكلي الصوري من خلال الجهاد والبذل والصدق.

3ـ لا قيام للمجتمع الحق دون عقيدة الولاء والبراء فهي جزء لا يتجزأ من لبنة المجتمع المسلم.

4ـ الجهاد في السورة منبط بمراحل حيث يرتبط بنقض العهود والعدوان لا بإلغاء السلم ابتداء.

هذا وأسأله - سبحانه - بحب نبيه أن يجعل عملي كله صالحا، ولوجهه خالصا، ولا يجعل فيه لأحد شيئا، وأسأله أن يعصمني من الرياء والسمعة، إنه خير مقصود.

بيان تضارب المصالـــح:

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

المصادر والمراجع:

1-القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.
2- المقّري، أحمد بن محمد، 1939م، أزهر الرياض في أخبار القاضي عياض، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة،ص35.
3- الجزائري، جابر بن موسى، 2003م، أيسر التفاسير، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ص353.
4- ابن عجيبة، أحمد بن محمد، 1419ه، البحر المديد، القاهرة، ص355.
5-الفرماوي، عبدالحي حسين،1977، البداية في التفسير الموضوعي، مطبعة الحضارة العربية، ص1.
6- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم، 1990م، البرهان في تناسب سور القرآن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ص221.
8-ابن عاشور، محمد الطاهر، 1984م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر- تونس، ص95.
9- الجرجاني، علي بن محمد، 1403ه، التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية-بيروت، ص245.
10- القرطبي، محمد بن أحمد، 1964م، تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية- القاهرة، ،ص61.
11- طنطاوي، محمد سيد، بلا، التفسير الوسيط، دار الهضة- مصر، ص1922.
12- الزحيلي، وهبة مصطفى، 1422ه، التفسير الوسيط، دار الفكر- دمشق، ، ص845.
13- الطبري، محمد بن جرير، 2001م، جامع البيان، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ص100.
14-ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 1420ه، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ص135.
15- الأصبهاني، أحمد بن عبدالله، 1974م، حلية الأولياء، دار السعادة- مصر، ص376.
16- البخاري، محمد بن إسماعيل، 1422ه، صحيح البخاري، دار طوق النجاة.
17- أبو الحسن، مسلم بن الحجاج، 1422ه، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
18-ابن العربي، محمد بن عبدالله، 1997م، عارضة الأحوذي، دار الكتب العلمية- بيروت،ص71.
19- الشوكاني، محمد بن علي، 1414ه، دار الكلم الطيب- دمشق، ص13.
20- الشاذلي، سيد قطب، 2019م، في ظلال القرآن، دار الشروق- القاهرة، ص1586.
21- أبو حفص، عمر بن عادل، 1998م، اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ص5.
22- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، 1416ه، مدارج السالكين، دار الكتاب العربي،ص355.
23- الأصبهاني، حسين بن محمد، 1412هـ، المفردات، دار القلم-دمشق، ص819.
24- القزويني، أحمد بن فارس، 1979م، مقاييس اللغة، دار الفكر، ص454.
25- البقاعي، إبراهيم بن عمر، 1980م، نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي،ص664.